القرارات السياسية ودورها في ترسيخ الهوية الثقافية واللغوية للمجتمعات - الجزائر نموذجا

Political decisions and their role in consolidating the cultural and linguistic identity of societies - Algeria as a model

إعداد

د. نـــاديـــة بـــولقـــدام

أستاذة محاضرة أ، شعبة الترجمة (جامعة تلمسان –الجزائر)

Doi: 10.33850/ajahs.2020.120033

الاستلام : ١٣ / ٨ /٢٠٢٠ القبول : ٢ / ٩ /٢٠٢٠

المستخلص:

سأحاول من خلال هذا المقال، سرد أهم الحقب التاريخية التي مرت بها الجزائر، هادفة بذلك إلى إبراز السياسات التي اعتُمدت وبالتالي أثرت تأثيرا بارزا على أجيال الشعب الجزائري، فأنتجت ما يتسم به هذا المجتمع اليوم من تنوع ملحوظ على الجانبين الثقافي واللغوي. وذلك إيمانا مني بأن التراكمات التاريخية كان لها الأثر الأبرز في المرور بالمجتمع الجزائري من لغته الأم، الأمازغية، إلى تأثر بعض من لهجاته بالإسبانية كمدينة وهران وما جاورها، التي احتلها الاسبان وبنوا بها قواعدا عسكرية لعشرات السنين، إلى نزوح اللاجئين من الأندلس والذين ضموا بينهم الآلاف من العائلات اليهودية التي لعبت دورا كبيرا أيضا في اختلاط اللغة الجزائرية بالعبرية في العديد من المناطق التي نزلت واستقرت بها هذه الجالية كمدينة تلمسان وقسنطينة وغيرهما، ثم عهد الدولة العثمانية مما زاد إلى رصيد اللغة الجزائرية المتأثرة بالعديد من اللغات، العنصر التركي. بعد ذلك حلت مرحلة الاحتلال الفرنسي وسياسته في فرنسة الجزائريين ومحو أثر الهوية الثقافية واللغوية للجزائريين عن طريق تفعيل سياسات ردعية سوف نسردها لاحقا. بعد الاستقلال، اختار السياسيون الجزائريون الانتماء إلى الأمة العربية، فبدأت سياسة التعريب التي سوف نتحدث عنها بالتفصيل فيما سوف يلي. من خلال هذه المحاولة، أطمح للتأكيد على عنصر القرارات السياسية كأحد الأقطاب المهمة في وضع التوجهات اللغوية والثقافية للمجتمعات، واخترت النموذج الجزائري للتعليل على ذلك. والأمثلة حول العالم كثيرة.

الكلمات المفتاحية: السياسات الردعية - التركيبة السوسيوثقافية – الهوية الثقافية

Abstract:

Algerians as a people, are characterized by a culture and a language that made from them a unique social and linguistic phenomenon in the Arab World, if not in the world as a whole. For that, many studies have been done in attempts to explain the phenomenon and to enumerate the main reasons and factors that led to that.In Algeria, Cultural and linguistic diversity is evident from one region to another, so that Algeria resembles to a continent, this region of the world has seen the passage and the settlement of different races with different beliefs, religions, and traditions; ruins, objects and manuscripts found and studied by specialists give evidence, the traditional heritage gives evidence also .This succession of different races, from immemorial to the most recent time, has made into birth the most significant effect in creating the linguistic and cultural phenomenon of the algerian society. In this stage I aim to focus on the historical factor, which I believe to be the main reason, where I will try to highlight the most important historical periods, then I'll mention policies that have been adopted and thus have a significant impact on the generations' linguistic side, of the Algerian people over time, in the emergence of today's marked diversity on both the cultural and the linguistic sides.

key words:Peoples and nations that marked their passage or settlement in Algeria . The repressive policies over time in the field of education, The Algerian.sociocultural structure.

تمهيد:

يتميز الشعب الجزائري بثقافة ولغة جعلت منه ظاهرة اجتماعية ولغوية فريدة من نوعها، مما أسال الكثير من الحبر في محاولات من أجل تفسير الظاهرة وسرد أهم الأسباب والعوامل التي أدت إلى ذلك.

إن الناظر للجزائر بعين المتفحص، يلاحظ جليا التعدد الثقافي واللغوي من منطقة لأخرى، حتى شُبهت الجزائر بالقارة، ولعل تعاقب الأجناس المختلفة واستقرارها بهذا البلد، منذ غابر الأزمنة إلى أحدثها، كان له الأثر الأبرز في خلق الظاهرة اللسانية والثقافية الآنية للمجتمع الجزائري. وفي هذا الحيز، يذكر "هنري لوفيغر" الباحث اللساني الفرنسي عام ١٩٦٦، في كتابه "اللسان والمجتمع" التفاوت اللغوي عند الطبقات الاجتماعية المختلفة، وينتهي بنتيجة تقول أنه:" لا تجدي محاولة فهم المجتمع بدءا من اللغة بل يجدر فهم لغة هذا المجتمع وأقواله بدءا منه"(١). فاللغة هي ميدان التفاعل الواسع الذي يمنح لكل مجموعة لسانية (Linguistic community) طباعها الخاصة (٢). من هذا المنطلق وجب التركيز على العامل التاريخي، الذي أظنه السبب الأساسي وراء تراكمات أحداث وسياسات حددت الخصوصية اللغوية والثقافية للجزائريين، فهل يمكن اعتبار عامل القرارات السياسية والردعية عنصرا من عناصر وضع التوجهات اللغوية والثقافية للمجتمعات؟

من خلال هذا المقال، نحاول تسليط الضوء على عنصر نظري، من جهة، وآخر تثقيفي من جهة أخرى. أما الأول فيتمثل في التأكيد على عاملي الزمن والسياسات التعليمية والردعية اللذان من شأنهما التأثير وبقوة في تحديد التوجهات اللغوية والثقافية للمجتمعات، وعللت على ذلك بالنموذج الجزائري. من جهة أخرى، يضم المقال معلومات تساعد القارئ الكريم عموما والعربي خصوصا، على فهم ولو سطحي للشخصية الجزائرية وأهم العوامل المؤثرة في هويتها اللغوية والثقافية.

لأجل ذلك، سوف نعمد إلى إبراز أهم الحقب التاريخية التي مرت بها الجزائر، إضافة إلى تسليط الضوء على السياسات التي اعتُمدت وبالتالي أثرت تأثيرا بارزا على أجيال الشعب الجزائري عبر الزمن، فساهمت في ظهور ما يتسم به هذا المجتمع اليوم من تنوع ملحوظ على الجانبين الثقافي واللغوي.

مصطلحات الدراسة:

- القرارات السياسية:

القرار السياسي، عموما، هو ذلك الرأي النهائي الذي يصدر عن شخص ذي صفة سياسية أو من خلال أحد أجهزة السلطة السياسية أو منصبا على موضوع يتعلق بالسياسة العامة للدولة، يتم اتخاذه من أجل التطبيق الفوري (٢٩). أما في هاته الدراسة فيتعلق الأمر بالقرارات الردعية التي اتخذتها وطبقتها سلطات الاحتلال الفرنسية من اجل طمس اللغة العربية والأمازيغة بين أوساط الجزائريين وبالتالي محو الهوية العربية الإسلامية لهذا الشعب عن طريق فرض اللغة والثقافة الفرنسية بالقوة.

- الهوية الثقافية:

يقصد بمصطلح الهوية الثقافية، "الهوية أو الشعور بالانتماء إلى مجموعة. وهو جزء من مفهوم الشخص الذاتي ونظرية الفهم الذاتي ويرتبط بالجنسية والاثنية والدين والطبقة الاجتماعية والموقع أو أي نوع من الفئات الاجتماعية التي لها ثقافتها الخاصة (٣٠). اما في الدراسة التي نتناولها، فنتحدث عن الهوية الثقافية الآنية للشعب الجزائري، أي انتماءات هذا المجتمع الدينية والثقافية، الذي كان نتاج التراكمات التاريخية، والقرارات السياسية الاستعمارية الفرنسية، والقرارات السياسية في مجال التربية والتعليم، واعتماد وسائل التواصل كالإذاعة والتلفزيون من أجل تعريب الشعب الجزائري الذي أصبح معظمه فرنسي اللسان والثقافة.

- الهوية اللغوية:

يتركب مصطلح "الهوية اللغوية من لفظتين مرتبطتين على سبيل الإضافة والاقتران لضرورة وعلاقة وظيفية بين طرفي المركب، وظيفة لا تتحقق في غياب أحد الطرفين: طرف اللغة وطرف الهوية" (٣١). والهوية اللغوية في هذه الدراسة نقصد بها تلك الظاهرة اللسانية الفريدة من نوعها في العالم العربي على الأقل التي اختص بها الجزائريين، والسبب في ذلك بدور يعود إلى التركمات التاريخية المتمثلة في تعدد الأجناس والثقافات البشرية التي احتك بها الشعب الجزائري فكان لها الأثر الكبير في خلق اللهجات الجزائرية الآنية إضافة إلى السياسات المتخذة في مجال التربية والتعليم قبل وبعد الاحتلال الفرنسي للجزائر، زد على ذلك عوامل أخرى ذكرت في طيات هذه الدراسة.

الخلفية النظرية للدراسة :

أ. المحطات التاريخية التي كان لها الأثر الأبرز في تحديد التركيبة السوسيوثقافية الآنية للمجتمع الجزائري:

١. العصور القديمة

منذ غابر الأزمنة، مثلت الجزائر مهد الحضارة البربرية، غير أن تاريخ البلد لم يبدأ رسميا إلا مع قدوم الفينيقيين الذين أقاموا معابر تجارية. ثم تبعهم القرطاجيون بفتح نفس المعابر التجارية مع تطوير أنشطة ساحلية مختلفة، مع ترك الداخل للبربر. كانت "البونية" (Le punique)، وهي لغة سامية، قريبة من العبرية، لغة الملوك النوميديين (Les numides)، أي اللغة الرسمية لقرطاجة. ونظرا للاستعمار الطويل الأمد للبونية في الجزائر، فمازالت آثارها عالقة بالبربرية الآنية، خصوصا في مجال التشجير (L'arboriculture) (٣).

كان الرومان في القرن الأول قبل الميلاد، يحتلون إفريقيا الشمالية (ما يُعرف بالدولة الجزائرية اليوم)، فنقلوا حضارتهم إلى السكان المحليون، غير أنهم لم يتمكنوا

من تحويل البربر إلى لاتينيين، بل فضلوا العيش بعيدا في الجبال، متشبثين بلغتهم وتقاليدهم، فأظهر البربر تمردا وعصيانا دائمين. ومع ظهور الدين المسيحي لاحقا، الذي اكتسح جل شمال إفريقيا، تقبل البربر المسيحية، ومع الوقت تمكنوا من صد الرومان من أراضيهم (٤).

تزامن سقوط المغرب الروماني باحتلال" الوندال" (Les vandales) له. كان هؤلاء القوم يستعملون اللغة الجرمانية شفهيا، الكتابة القوطية (L'écriture gothique) ، واللاتينية في التشريع الدبلوماسي. لم يتعرض الوندال أبدا للبربر، كما لم يكن لهم أي تأثير على لغة البربر المتمركزين في الجبال. يجدر الذكر هنا أن تواجدهم بالمنطقة لم يكن بالكفاية التي يتطلبها التهجين العالي الدرجة (٤٥٥ م- ٥٣٣ م). فقد طردوا سنة ٥٣٣ م من طرف البيزنطيين. اختفى الوندال ولم يخلفوا ورائهم أي أثر، غير أن الناجون وجدوا المأوى بين السكان البربر في القبائل وبهذه الطريقة تم اختلاطهم بالسكان الأصليون، والدليل على ذلك التركيبة المرفولوجية لسكان هذه المنطقة، إذ أن سكان القبائل يختلفون عن باقي سكان الجزائر بنسبة كبيرة لذوي البشرة الشقراء والصهباء، أما البيزنطيون فلم يتح لهم الوقت الكافي لتنظيم صفوفهم، لأن العرب نزحوا نحو المنطقة (٥).

٢. الفتح الإسلامي وقدوم الأتراك:

غادرت الجيوش العربية الإسلامية مصر سنة ٦٤٧م متجهة نحو الغرب، ففتحوا كل المغرب سنة ٧١١م بما في ذلك الجزائر البربرية. عموما تقبل الأمازيغ سريعا الدين الإسلامي مع الحفاظ على لغتهم، على الأقل السكان في الجبال. تعايشت اللاتينية والعربية واللغات الأمازيغية والبونية، لزمن طويل، فقد وُجدت آثار تدل على استعمال الكتابة اللاتينية خلال القرن الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين.

لقد تم غرس اللغة العربية والدين الإسلامي عن طريق المساجد، ثم شرع سكان المدن في تبني اللغة العربية تدريجيا، واعتبروها لغة مقدسة. أما سكان الجبال، فلم يتجاوبوا كثيرا مع اللغة الأجنبية الجديدة واستمروا في استعمال لغة أسلافهم. من هنا بدأ تاريخ تعريب الأمازيغ (٦).

بحلول القرن السابع عشر للميلاد، أصبحت الجزائر مقاطعة ضمن الإمبراطورية العثمانية، تحت حكم الداي وباياته والإنكشارية. لقد استفادت الجزائر خلال الحكم التركي من حكم ذاتي تحت سيطرة عسكرية بقيادة الداي وسيطرة الإنكشاريين الأتراك.

كالوندال، رفض الأتراك التعرض والاختلاط بالسكان الأصليين المعربين. لمدة ثلاثة قرون، لم يتعايش هؤلاء أبدا مع هؤلاء الناس الناطقين بالعربية، فقد اعتبروا أنفسهم فئة مختلفة يعيشون كأجانب بشمال إفريقيا حتى سنة ١٨٣٠م. هذا لأن الوجود التركي بالجزائر لم يكن من النوع الاستعماري. الأتراك الذين تواجدوا في الجزائر

هم من كانوا يديرون البلد أو العساكر، غير أن عددا منهم، خصوصا الانكشاريون، انتهوا بالزواج بنساء محليات، أما المواليد فقد أطلقت عليهم التسمية التركية الأصل ’qul oghlu‘‘ التي تعني "ابن العبد". عموما لم يسمح الأتراك بإدماج لغتهم في المجتمع الجزائري، بل عملوا على ترسيخ وانتشار اللغة العربية والإسلام. غير أن العربية التي ترسخت وللأبد، ليست لغة القرآن، بل العربية الجزائرية المتأثرة بالأمازيغية، اللاتينية والتركية. أما اللغة الرسمية التي اعتُمدت أثناء هذه الفترة، فكانت اللغة التركية العثمانية. ونظرا لجهل السكان لهذه الأخيرة، فقد اعتمد الموظفون الأتراك على المترجمين من أجل التواصل بالأمازيغية وبالعربية الجزائرية مع عامة الناس (٧).

بمرور الوقت، تطورت لغة تجارية بين الأتراك، الجزائريون، والأوربيون، بقاعدة من المفردات الإسبانية وعناصر تركية وأشكال نحوية مستوحاة من العربية. بهذه الطريقة، استمدت العربية الجزائرية (الدارجة أو العامية) مفرداتها الإغريقية واللاتينية، خصوصا في مجال الملاحة البحرية والصيد البحري. اسمرت هذه اللغة المشتركة في الوجود بعد الاستعمار الفرنسي عام ١٨٣٠م. هذه الاختلافات اللغوية ساعدت في خلق تنوعات لغوية تختلف عن العربية في الشرق الأوسط، إضافة إلى عامل البعد الجغرافي، الزمني والنسيج السوسيوثقافي، كلها عناصر صعدت تنوع العربية الجزائرية.

٣. الاستعمار الفــرنســي:

بدأت مرحلة الاستعمار الفرنسي في زمن شارل العاشر (Charles x) ١٧٥٧-١٨٣٦. طور شارل العاشر سياسة سلطوية، دينية، محافظة، الشيء الذي يضمن استقرار نظامه (٨).

كانت أولى محاولات غزو الجزائر بهدف فرض السلطة الملكية وتوسيع أراضيها، ابتداء من سنة ١٨٢٧ م (٩). في سنة ١٨٢٩، قام شارل العاشر بإصدار قرار من أجل التحضير لغزو الجزائر، متذرعا بعملية تنظيف البحر الأبيض المتوسط من القراصنة الأتراك، الذين حكموا البلاد مدة الثلاثة قرون. فأهبت فرنسا كل قواتها البحرية مع دعم أوروبي واسع، وجعل الحرب المرتقبة حربا مقدسة تحت لواء الصليب من أجل إبعاد المسلمين غير المؤمنين (١٠). لأجل هذه المهمة، اختار شارل العاشر "الكونت لويس دو بورمو" (Louis De Bourmont) وزير الحربية ونصبه في ١١ أبريل ١٨٣٠ قائدا للحملة في إفريقيا. وقبل الصعود إلى المراكب الحربية في العاشر من مايو من نفس السنة، أدلى بخطاب فحواه ما يلي:

‘‘La cause de la France est celle de l’humanité. Montrez-vous dignes de votre belle mission…soyez justes et humains après la

victoire…Rendons la guerre moins longue et moins sanglante.'' (١١)

ما معناه باللغة العربية: "إن هدف فرنسا هو هدف الإنسانية. كونوا عند نبل هذه المهمة الجميلة...كونوا عادلين وإنسانيين بعد النصر...فلنجعل معا الحرب أقل زمن وأقل دموية...". بمثل هذه الخطب الرنانة، تُبرر الغزوات العسكرية.

في مايو ١٨٣٠م، أبحرت فرق فرنسية مكونة من ٣٧٠٠٠ عسكري و٢٧٠٠٠ رجل بحرية على متن ٦٧٥ باخرة حربية. أرست هذه الأخيرة على شبه جزيرة سيدي فرج الجزائرية يوم ١٤ جوان التي تبعد بنحو ٢٥ كيلومتر عن العاصمة الجزائر. من هناك أمطر "دو بورو" المدينة قصفا حتى سقوطها يوم الخامس من جويلية. وكان الثمن الذي دفعته فرنسا هو ٤٨ مليون فرنك إضافة إلى سقوط ٥٠٠ قتيل وما يقارب ٢٠٠٠ جريج. فاندفع العساكر الفرنسيون نحو المدينة بكل وحشية تاركين ورائهم قيم ومبادئ فرنسا. أما في فرنسا، فقد قوبل الغزو للجزائر بردود فعل متفاوتة، وكانت النتيجة إسقاط الملك شارل العاشر بعد بضعة أسابيع .(١٢)

لقد فُرض الاستعمار الفرنسي في الجزائر بالقوة، قرية بعد قرية. وفي المقابل لاقت هذه القوات مقاومة شرسة، مما أبطأ عملية الاستيلاء الشامل للبلد، مقارنة بالمغرب وتونس، كمقاومة الأمير عبد القادر التي دامت ١٨ سنة، وغيرها كثير. كانت الوسائل العسكرية ضد السكان الجزائريين وحشية، والأدلة على ذلك لا تعد ولا تحصى، من بينها شهادة الكولونيل (F de Montagnac.L)، الذي كان ضابطا خلال الغزو الفرنسي للجزائر (رسالة من عسكري، ١٥ مارس ١٨٤٣):

''Toutes les populations qui n'acceptent pas nos conditions doivent être rasés. Tout doit être pris, saccagé, sans distinction d'âge ni de sexe : l'herbe ne doit plus pousser ou l'armée française a mis les pieds…Voilà comment il faut faire la guerre aux arabes, tuer tous les hommes jusqu'à l'âge de quinze ans, prendre toutes les femmes et les enfants, en charger les bâtiments, les envoyer aux iles Marquises ou ailleurs. En un mot, anéantir tout ce qui ne rampera à nos pieds comme les chiens ''

(13) ما يعني باللغة العربية: 'يجب محو كل السكان الذين يرفضون شروطنا. يجب أخذ وسلب كل شيء دون التمييز بين السن أو الجنس: يجب ألا ينمو العشب الذي تقف فوقه القوات الفرنسية...هكذا تكون الحرب مع العرب: قتل الرجال حتى سن الخامسة عشر، أخذ النساء والأطفال في بواخر وإرسالهم إلى جزر الماركيز أو غيرها. في كلمة واحدة إبادة كل من لا يركع عند أرجلنا كالكلاب."

٤. قدوم المستوطنين الأوربيين:

بدأ المستوطنون الأوربيون يتقاطرون على الجزائر، فتوزعوا على الأراضي التي كانت ملكا لقبائل جزائرية، بعض منها أبيدت عن بكرة أبيها، أو تم شرائها من أصحابها بأبخس الأثمان تحت التهديد والتعذيب.

تم تنصيب "جول فيري" (Jules Ferry) وزيرا للمستوطنات (١٨٨٣-١٨٨٥) (١٤). كان مقتنعا بأن لفرنسا "مهمة حضارية فيما وراء البحار". كان يؤمن بأن لفرنسا خط تتثبت به: "لا يجب أن تكون فرنسا مجرد بلد حر، بل يجب أن تكون بلدا كبيرا مؤثرا في كل أوروبا، وتأخذ أينما ذهبت لغتها، مبادئها، رايتها، أسلحتها، إمكاناتها ...هذه الفكرة بررت المؤسسة الاستيطانية الكبيرة لفرنسا المدعومة من طرف "جول فيري". في ١٢ جوان ١٨٨٢ أقر وطبق "قانون الوطنية" (code de l'indigénat). في الوقت الذي وضعت فيه فرنسا قوانين ضد العرب لأجل استئصال كلمة عروبة من الجزائر، بدأت تحضر لإطلاق اسم "جول فيري" على مئات المدارس والطرقات. فاتسمت تلك القوانين بالعنصرية ولا تخدم غير الصناعة البرجوازية الفرنسية.

أظهرت الإحصائيات أن نسب السكان الأوربيين غير الفرنسيين (إسبان، إيطاليون، مالطيين، ألمان..) تتزايد باستمرار، الشيء الذي زاد من تأثر العربية الجزائرية بمزيج من لغات أخرى، ما يظهر جليا على جدول نسب السكان الأوروبيين غير الفرنسيين المستوطنين في الجزائر:

نسب السكان الأوربيين غير الفرنسيين بالجزائر عبر السنين (١٥)

السنة	ذوي الأصل الفرنسي	فرنسيين مجنسين	مجموع الفرنسيين	الأجانب	مجموع الأوربيين	نسبة الأجانب
١٨٣٣	٣٤٧٨	-	٣٤٧٨	٤٣٣٤	٧٨١٢	%٥,٥٥
١٨٣٦	٥٤٨٥	-	٥٤٨٥	٩٠٧٦	١٤٥٦١	%62,3
١٨٣٩	١١٠٠٠	-	١١٠٠٠	١٤٠٠٠	٢٥٠٠٠	%56,0
١٨٤١	١٥٤٩٧	-	١٥٤٩٧	٢٠٢٣٠	٣٥٥٢٧	%56,9
١٨٤٦	٤٦٣٣٩	-	٤٦٣٣٩	٤٩٧٨٠	٩٦١١٩	%51,8
١٨٤٧	٤٢٢٧٤	-	٤٢٢٧٤	٦٧١٢٦	١٠٩٤٠٠	%61,5
١٨٥١	٦٦٠٥٠	-	٦٦٠٥٠	٦٥٢٣٣	١٣١٢٨٣	%49,4
١٨٥٦	٩٢٧٣٨	-	٩٢٧٣٨	٦٦٥٤٤	١٥٩٢٨٢	%41,8
١٨٦٦	١٢٢١١٩	-	١٢٢٢١٩	٩٥٨٧١	٢١٨٠٩٠	%43,9
١٨٧٦	١٥٦٣٦٥	-	١٥٦٣٦٧	١٥٥٠٧٢	٣١١٤٣٩	%49,8
١٨٨٦	٢١٩٦٢٧	-	١٩٦٢٧	٢٠٣١٦٩	٤٢٢٧٩٦	48,1%
١٨٩١	٢٤٤٠٠٠	٢٧٠٠٠	٢٧١٠٠	٢٢٦٠٠٠	٤٩٦٠٠٠	%45,6

%40,0	٥٣٠١٣٧	٢١٢٠٠٠	٣١٨١٣٧	٥٠٠٠٠	٢٦٨٠٠٠	١٨٩٦
%37,6	٥٨٣٦٣٧	٢١٩٣٨٠	٣٦٤٢٥٧	٧١٧٩٣	٢٩٢٤٦٤	١٩٠١
%27,0	٦١٥٦١٨	١٦٦١٩٨	٤٤٩٤٢٠	١٤٨٧٤٨	٣٠٠٦٧٢	١٩٠٦
%27,7	٦٨١٧٧٢	١٨٩١١٢	٤٩٢٦٦٠	١٨٨٠٦٨	٣٠٤٥٩٢	١٩١١
26,3%	٧١٧١٨٦	١٨٨٧٧٤	٥٢٨٣٩٢	١٢٣٤٨٤	٤٠٥٢٠٨	١٩٢١
%22,1	٧٩٥٨٥٧	١٥٥٧١٨	٦٢٠١٣٩	٧٠٩٩٣	٥٤٩١٤٦	١٩٢٦

ب.المسألة التربوية:

دُمجت الجزائر رسميا مع فرنسا عام ١٨٨١م، وقُسمت إلى ثلاث مقاطعات إدارية: الجزائر العاصمة (٥٤٨٦١ كم^{٢})، وهران (٦٧٢٦٢ كم^{٢}) وقسنطينة (٨٧٥٧٨ كم^{٢}) التي تُضاف إليها محافظات الجنوب لاحقا (١٩٨١٧٥٠ كم^{٢}) (١٦). كل المناطق أُلحقت لوزارة الداخلية الفرنسية، وتسير من طرف حكومة عامة.

خُلقت التجمعات الأوروبية الكبيرة في المدن والقرى، وبالطبع اللغة الغالبة كانت الفرنسية، فبدأت نسبة العربية تتضاءل بين أوساط السكان الأصليين للجزائر. إذ حتى الإدارة كانت تحكمها اللغة الفرنسية. فيما يخص الجانب التربوي، طالب "جول فيري" إدماج المسلمين في المدارس الفرنسية، غير أن المستوطنون عارضوه، فاقتصر العرب على التردد على المدارس القرآنية باللغة العربية، ولما اقترحت عليهم السلطات الفرنسية حق التمدرس على نفقة الحكومة، قوبلت بالرفض ظنا منهم أنها محاولة لتنصيرهم، فرفضوا بعث أبنائهم إلى المدارس الفرنسية (١٧). في الأخير تمكن المستوطنون من السيطرة على البلد وبالتالي فرض اللغة الفرنسية وجعلها اللغة الرسمية والوحيدة للجزائر الفرنسية، حتى أن قانونا صدر سنة ١٩٣٨ يعتبر العربية لغة أجنبية .(١٨) وبهذا اتسمت مرحلة الاستعمار الفرنسي بالفترة التي طغت فيها اللغة الفرنسية في الجزائر، فنتج عن ذلك لغة هجينة كانت متداولة بين السكان الأصليين والمستوطنين الأوربيين، وهي عبارة عن خليط من الفرنسية والإسبانية والإيطالية والعربية (١٩).

ت.الاستقلال والتعريب:

تحصلت الجزائر رسميا على استقلالها يوم ٠٥ جويلية ١٩٦٢م في جو من الحرب الأهلية والتصدي الشرس من أجل السلطة، إضافة إلى المستوطنين الذين لم يتقبلوا فقدانهم العيش الرغد الذي ألفوه. في هذه المرحلة من تاريخ الجزائر، طغت اللغة العربية الجزائرية، والأمازيغية، والفرنسية، إضافة إلى الإسبانية في بعض المناطق الغربية، والإيطالية في بعض المناطق الشرقية. أما اللغة العربية الكلاسيكية فكانت اللغة الغريبة التي لا يستعملها أحد. فاتسمت الجزائر المستقلة بتنوع لغوي (une diversité linguistique) ورثته من تاريخها. فقد استُعيدت الجزائر

بعناصر لغوية وثقافية سوف يكون لها الأثر البارز على المستقبل اللغوي في البلد. لهذا كان من الضروري رسم خطة طويلة الأمد من أجل توحيد الدولة والدين واللغة.

كانت تلك حقب ما قبل الاستقلال والأثر الكبير الذي لعبته في تكوُن التركيبة السوسيوثقافية واللغوية الجزائرية. فبالإضافة إلى ما تراكم من لغات الأمم التي سكنت أو مرت عبر الجزائر، كذلك لعبت مرحلة ما بعد الاستقلال دورا بارزا في التحول الكبير في الوضع السوسيوثقافي واللغوي للجزائريين، فالسياسات التربوية التي طُبقت في المدارس الجزائرية عبر سنوات ما بعد الاستقلال، كان لها الأثر البالغ في الوضع السوسيوثقافي واللغوي للشعب الجزائري الذي أصبح يُعرف اليوم بالشعب متعدد اللغات والثقافات.

ث.أهم السياسات التربوية المُتخذة من طرف المسئولون الجزائريون (من ١٩٦٢ إلى ١٩٩٩):

* مرحلة الرئيس" أحمد بن بلة":

نُصب في سبتمبر عام ١٩٦٢م رئيسا للجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية. أقر تأسيس الدولة في أكتوبر ١٩٦٣، فأصبح الإسلام دين الدولة والعربية لغتها الرسمية. رفض النظام الجديد كل أشكال العربية الجزائرية (اللهجات) أو الأمازيغية كونها تحمل مفردات أجنبية، وبالتالي هي لغات غير أصيلة. فمنذ البداية، أعلن "الرئيس بن بلة" انتماء الدولة الجديدة، الذي يطمح إليه. ففي ١٤ أفريل من سنة ١٩٦٢، وفي مطار تونس ردد عبارات ثلاث مرات: "نحن عرب"، "نحن عرب"، "نحن عرب" كما ذكر عبارة "الجزائر دولة عربية ومسلمة"(٢٠).

خلال الدخول المدرسي ١٩٦٣م أقر الرئيس بن بلة إدخال اللغة العربية في كل المدارس الابتدائية بنسبة ١٠ ساعات على ٣٠ ساعة في الأسبوع، ثم التعريب الكامل للسنة الأولى ابتدائي في سنة ١٩٦٤م. غير أن عدم توفر مدرسي اللغة العربية الفصحى، دفع بالحكومة إلى جلب نحو ١٠٠٠ مدرس لغة عربية مصري (٢١).

*الرئيس هواري بومدين والتعريب الاجباري (١٩٦٥ – ١٩٧٨):

بالرغم من أن" الرئيس هواري بومدين" ينتمي إلى أصول أمازيغية، إلا أنه مشبع باللغة العربية والدين الإسلامي، ويعود السبب في ذلك إلى تتلمذه في مدارس قرآنية في منطقة قالمة الجزائرية، ثم في مدرسة القطاني بقسنطينة، ثم في جامعة الزيتونة التونسية، فالأزهر الشريف. مما يفسر السياسات التي اتبعها من أجل نشر اللغة العربية وإرسائها حتى ترقى إلى أن تكون لغة الدولة الجزائرية الرسمية (٢٢).

رَسم الرئيس في جويلية ١٩٦٥ "أحمد طالب الإبراهيمي" كوزير للتربية، فكانت المدرسة السبيل الوحيد لتحقيق توحيد اللغة والدين، اللغة العربية الفصحى التي كان الرئيس "بومدين" يتقنها ويبهر بها شعبه، فقد كان الوحيد الذي يستعملها آن ذاك.

استفادت المدارس من كتب مدرسية ببرنامج تعليمي فعال باللغة العربية. فاعتُمد على تعليم اللغة الكتابية والشفهية باستعمال تقنية الحوار البسيط من أجل تصحيح أخطاء الطفل، وهذه في الحقيقة طريقة فرنسية ''Frères Jaques ''التي استُبدلت بـ "ملك وزينة". فكان على الطفل تعلم مجموعة من الجمل والمفردات الصحيحة حسب قواعد اللغة العربية. كما كان على المدرسين دائما التذكير بأن اللهجة المستعملة في الحياة اليومية هي لغة منحطة لا ترقى إلى اللغة الكلاسيكية. كان الهدف من وراء ذلك هو تقديم لغة القرآن على أنها اللغة الوحيدة، وبالتالي تكون المحرك الأساسي لثقافة مُوحدة (٢٣). من جهة أخرى، شرعت الدولة في تعريب الإذاعة والتلفزيون، كما بدأت تظهر الأرقام الهندية على شاشات التلفزيون.

في سنة ١٩٦٧م شُرع في تعريب السنة الثانية ابتدائي إضافة إلى خلق دفعة مُعَربَة في كلية الحقوق سنة ١٩٦٨م وليسانس في التاريخ بالعربية. ثار حينها الأساتذة الفرنكفونيون، وقوبل ذلك بإصدار قانون يجبر كل الأساتذة والإداريين على تعلم اللغة العربية الكلاسيكية (٢٤).

ابتداء من سنة ١٩٧٠م، أصبح السيد "عبد الحميد مهري" أمينا عاما للتعليم الابتدائي والثانوي (١٩٧٠-١٩٧٧)، فكان مؤسس التعريب في الجزائر. فهو من طبق التعريب الكامل للتعليم الابتدائي والثانوي. كل المقررات كانت تشمل العالم العربي الإسلامي وماضيه الذهبي، كما دعمت بأعلام الجزائر الذين قاوموا الاستعمار ونشروا العربية والإسلام "كالإبراهيمي" وابن باديس" ... (٢٥). إضافة إلى كل ذلك، عربت الوثائق الرسمية والمعلقات واللافتات، كما عربت الإذاعة، مما يسمح للمرأة الماكثة في البيت والفلاح... أن يتعلموا ولو القليل من اللغة العربية، عن طريق الاستماع إلى برامج إذاعية متنوعة.

أخيرا نستطيع القول إن مرحلة "الرئيس هواري بومدين" كانت المرحلة الحاسمة التي اختارت للشعب الجزائري الهوية العربية الإسلامية.

*مرحلة الرئيس" الشاذلي بن جديد" (١٩٧٩-١٩٩٠):

تعتبر فترة "الرئيس الشاذلي بن جديد'، من جديد مرحلة مواصلة التعريب. في عام ١٩٨٦م، أقر البرلمان الجزائري القانون ١٠-٨٦ الصادر في ١٩ أوت ١٩٨٦م والخاصة بإنشاء **الأكاديمية الجزائرية للغة العربية** الملزمة بالعمل على إثراء اللغة العربية وتطويرها. غير أن المشروع لم يُطبق إلا بوصول "الرئيس زروال" لاحقا إلى سدة الحكم. فقد قوبل المشروع برفض وانتفاضة القبائل والمطالبة بالعودة إلى لغة الشعب الجزائري: الأمازيغية. فاتهموا بالعملاء من طرف النظام. وقد أدلى الرئيس بخطاب مغزاه أن الجزائر دولة عربية مسلمة (٢٦).

وقعت أحداث الربيع الأمازيغي عام ١٩٨٠م ثم أخذ في التوسع. فالأمازيغ لم يكونوا ضد التعريب، لكنهم كانوا يطالبون بإدماج اللغة الأمازيغية من أجل الحفاظ

على الهوية الأمازيغية للشعب الجزائري، قوبلت تلك المطالب بالرفض من قبل السلطات. من جهة أخرى ثار الطلبة كون شهاداتهم العربية ليست لها قيمة، إضافة إلى عدم توفر المصادر والمراجع باللغة العربية من أجل بحوثهم ودراساتهم، مع تراكمات اجتماعية أخرى، انفجرت أحداث ١٩٨٨م. في فبراير أصدر الرئيس مرسوما يسمح بالتعددية الحزبية في الجزائر. وفي جوان ١٩٩٠م نُظمت أول انتخابات تشريعية (٢٧).

*مرحلة "الرئيس محمد بوضياف'':

لم يتسنى "للرئيس الراحل بوضياف" أن يحكم الجزائر إلا ستة أشهر، غير أنه أبهر الجماهير الجزائرية كونه خاطبهم بالعامية الجزائرية تارة وبالفرنسية تارة أخرى. فقد صرح أنه يجب استعمال العامية حتى يفهم الجميع الرسالة. وقبل اغتياله بقليل في ٢٩ جوان ١٩٩٢م، أنشأ لجنة من أجل تجميد قانون تعميم استعمال اللغة العربية.

* مرحلة "الرئيس ليمين زروال" (١٩٩٤-١٩٩٩):

عرفت هذه الحقبة بالصدامات والحرب الأهلية، فلم يكن أمام "الرئيس زروال" سوى الإمساك بالعمود من الوسط. فأقر قانونا يمنح الطلبة الاختيار بين لغتين أجنبيتين، الفرنسية أو الانجليزية (لغة العلوم والتكنولوجيا) ومن جهة أخرى شجع حفظ القرآن عن طريق تنظيم مسابقات ومنح جوائز مالية. ونظرا لتفاقم الأوضاع الأمنية، استقال الرئيس عن منصبه قبل سنتين من انتهاء عهدته الرئاسية.

*مرحلة "الرئيس عبد العزيز بوتفليقة" (١٩٩٩ إلى يومنا هذا):

فيما يخص المسألة اللغوية، نستطيع القول أن" الرئيس عبد العزيز بوتفليقة" قد جعل من خطابه أكثر تفتحا، فاستعمل اللغة الفرنسية في تصريحاته سواء في الداخل أو في الخارج، فقال: ''من غير المعقول دراسة العلوم الدقيقة بالعربية لمدة عشر سنوات، بينما يمكن تعلمها في سنة واحدة باللغة الانجليزية." وهي ترجمة للنص الأصلي الذي يلي:

''Il est impensable d'étudier des sciences exactes pendant dix ans en Arabe, alors qu'elles peuvent l'être en un an en anglais''. (28)

عموما، اتسمت عهدة "الرئيس بوتفليقة" بالانفتاح على كل مكونات الهوية الجزائرية. فالعربية والأمازيغية والفرنسية هي لغات تمثل صورة لغوية لهوية واحدة.

لقد مثلت كل الترسبات التي نتجت عن كل حقبة عنصرا جديدا يدخل في تكوين الشخصية والهوية الجزائرية الآنية. فهناك من يشبه الجزائر بالقارة، ويعود السبب في ذلك أولا لشساعة مساحتها، ولاختلاف الأجناس البشرية فيها وكثرة

لهجاتها الممزوجة بالفرنسية والعربية والتركية والاسبانية والإفريقية (بالنسبة للمناطق الجنوبية المتاخمة لدول إفريقية) ... وغيرها، زد على ذلك تعدد العادات والتقاليد من منطقة لأخرى. أما ما يجمع التنوعات اللسانية العديدة بالجزائر، فهي اللغة العربية والبربرية والفرنسية.

الحقيقة أن الفرد الجزائري ظاهرة لسانية غريبة قلما نجد مثيلها في ربوع العالم، ولعل التحولات التاريخية التي شهدتها البلاد منذ أغبر الأزمنة إلى أحدثها، والسياسات الردعية التي اتُخذت، تركت الأثر بارزا في رسم التركيبة السوسيوثقافية الجزائرية الآنية. الجزائري في حياته اليومية يستعمل لغة هي في الحقيقة مزيج من اللغات لا يفهمها إلا جزائري مثله، وفي كثير من الأحيان إلا من هم من أبناء منطقته، فقد يستعمل في جملة واحدة كلمة ذات أصل عربي وأخرى من الأمازيغية، وقد تكون معها ما هي من أصل فرنسي أو إسباني أو تركي، إنها اللهجات الجزائرية. حتى اللهجات العربية فقدت قواعد اللغة العربية كلها، وارتكزت على السكون.

من هذا المنطلق، أصبح دعاة هذا التيار أو ذاك يتكالبون على أحقية هذه اللغة أو تلك. ففريق يدعو إلى التعريب وآخر يدعو إلى الأمازيغية وآخر يدعو إلى الفرنسية، ولكل مبرراته، فهل ذلك يعني غياب قاعدة ثقافية أصلية للجزائر؟ أم أن ذلك مرده إلى تصارع ثقافات مختلفة تأصلت في الوطن؟

أظن أن سياسة فرق تسد التي تبنتها فرنسا أثناء استعمارها للجزائر، ما زالت برأيي سائرة المفعول، فلبست في أيامنا هذه ثوب الثقافة والهوية، فأصبح للشعب الجزائري حسب هذه الأيديولوجيات عدة ثقافات وعدة لغات، وبدأت الدعوة إلى تغيير أحد أهم ثوابت الدستور الجزائري، التي تنص على أن العربية هي اللغة الرسمية للشعب الجزائري، وبدأت الدعوات إلى جعل الأمازيغية تتبوأ مكانتها، والنتيجة الحتمية هي تفريق الجزائريين إلى عرب وأمازيغ، وفي هذه الحالة ستكون حتما العواقب وخيمة، تهدد استقرار الوطن وتضرب سيادته، مع أن هذه الإشكالية لم تكن مطروحة من قبل. ففي الوقت الذي كان الاستعمار الفرنسي يسعى بكل ما أوتي من قوة إلى تدمير الهوية العربية الإسلامية للجزائريين ولم يُوفق، كانت هناك في المقابل نوايا ثقافية إبان الثلاثينيات من القرن الماضي وُجدت في كل ربوع الوطن، شمالا، جنوبا، شرقا وغربا. كانت جميعها تدافع عن الهوية العربية والإسلامية للشعب الجزائري، بغض النظر عن اللغة المستعملة في الحياة اليومية. أما اليوم فقد أصبح تشجيع اللهجات واستعمالها في الأماكن الرسمية طريقة يُراد بها التسيس، مع العلم أن هذا الخطر أصبح يداهم كل الأقطار العربية. والغريب في الأمر أن الشعب الجزائري اتحد تحت راية العروبة والإسلام إبان فترة الاستعمار الفرنسي، فما الذي قلب الموازين اليوم؟

أما الحقيقة اللغوية التي يجب أن نتعامل معها كما هي في هذا المقام، هي أن الجزائر بلد غني بلهجاته، كما سبق الذكر، التي تُمثل مزيجا من لغات عديدة لشعوب مرت من هنا وتركت أثرها على اللسان الجزائري، وهكذا هي التركيبة السوسيوثقافية للمجتمع الجزائري، هذا طبعا من الجانب اللغوي.

الإحالات:

(١) مازن الوعر، دراسات لسانية تطبيقية، طلاس للدراسات والترجمة والنشر، دمشق، سوريا، ط١، ١٩٨٩، ص٢١.

(2) Jean Claude Chamboredon, Langue et Classes Sociales, Code Sociolinguistique et control Sociale, Editions de Minuit, Paris 1986, p 9-15.

(3) Assalah Rahal, Safia et Tassadit Efeden, Environnement Graphique et Politique Linguistique en Algérie, Langues Dominantes Langues Dominées, Publication de universités de Rouen et du Hve, 2008, pp254-258.

(4) Assalah Rahal, Safia et Tassadit Efeden, Environnement Graphique et Politique Linguistique en Algérie , Les Langues Dominantes Langues Dominées, ., pp254-258.

(5) [1] Assalah Rahal, Safia et Tassadit Efeden, Environnement Graphique et Politique Linguistique en Algérie , Les Langues Dominantes Langues Dominées, ., p 260.
(6) Querdane Amar, Les Berbères et l'Arabo-islamisme en Algérie, Montréal, édition K MSA, 2003, p63.
(7) Querdane Amar, Les Berbères et l'Arabo-islamisme en Algérie, p92.
(8) Lassus Jean, Histoire de l'Algérie, les Productions de Paris, Paris1979, p317.
(9) Renaudot Françoise, l'Histoire Des Français En Algérie, Edition Rober Laffont, Paris 1973, p317.
(10) Renaudot Françoise, l'Histoire Des Français En Algérie, Edition Rober Laffont, Paris 1973, p318.
(11) Renaudot Françoise, l'Histoire des Français en Algérie, p318.
(12) Renaudot Françoise, l'Histoire des Français en Algérie, p324
(13) Renaudot Françoise, l'Histoire des Français en Algérie, p326
(14) Jules Ferry (1832-1893), l'un des fondateurs de l'éducation modern française à l'origine des grandes lois scolaires républicaines, instituant la gratuité, l'obligation et la laïcité de l'école.
(15) Hadjadj Djilali, Une Population à Dérive dans le Monde Diplomatique, p24.
(16) Renaudot Françoise, L'Histoire Des Français en Algérie, p344.
(17) Renaudot Françoise, L'Histoire Des Français en Algérie, p344.
(18) Hadj Djilali, Une Population à Dérive dans le Monde Diplomatique, p39.
(19) Hadj Djilali, Une Population à Dérive dans le Monde Diplomatique, p39.

(20) Agence Française Presse, l'Arabe Sera la Seule Langue d'Usage en Algérie avant 1988, dans la Presse, Montréal, 18 décembre1996.
(21) Benrabah Mohammed, Langue et Pouvoir en Algérie, Histoire d'un Traumatisme Linguistique, édition Séguier, Paris 1999, p350.
(22) Benrabah Mohammed, Langue et Pouvoir en Algérie, Histoire d'un Traumatisme Linguistique, édition Séguier, Paris 1999, p350.
(23) Benrabah Mohammed, Langue et Pouvoir en Algérie, Histoire d'un Traumatisme Linguistique, édition Séguier, Paris 1999, p351.
(24) Benrabah Mohammed, Langue et Pouvoir en Algérie, Histoire d'un Traumatisme Linguistique, édition Séguier, Paris 1999, p354.
(25) Benrabah Mohammed, Langue et Pouvoir en Algérie, Histoire d'un Traumatisme Linguistique, édition Séguier, Paris 1999, p358.
(26) Querdane Amar, Les Berbères et l'Arabo-islamisme en Algérie, Montréal, Editions KMSA, 2003, p63.
(27) Querdane Amar, Les Berbères et l'Arabo-islamisme en Algérie, Montréal, Editions KMSA, 2003, p63.
(28) Benrabah Mohamed, Langue et Pouvoir en Algérie, Histoire d'un Traumatisme Linguistique, p361.
(٢٩) فهمي هويدي، مصطلحات الخطاب السياسي حيث تتحول إلى فخاخ وكمائن، مجلة المجلة، الرياض، العدد ١٠٦٧، يوليو ٢٠٠٠، ص ٣١.
(30) Multilingualism, Cultural Identity, and Education in Morocco, Springer Science & Business Media, 2005, pp. 19-23.
(٣١) د. بوبكر جيلالي، مقال بعنوان: الهوية اللغوية، صحيفة المثقف، العدد ٢٩٥٧، الصادرة بتاريخ ٢٠١٤/١٠.